

التناصّ مع القصّة القرآنيّة في شعر أبي تَمَام Quranic Intertextuality in Abu Tammam`s Poems

عبدالخالق عيسى

Abed.esa@najah.edu

جامعة النجاح الوطنية

كلية الآداب - قسم اللغة العربية

تاريخ الاستلام 2012/9/8 تاريخ القبول 2012/12/12

الملخص: تناولت هذه الدراسة أشكال توظيف القصّة القرآنيّة في شعر أبي تمام في غرضي المديح والغزل، وقد كشفت عن اهتمام كبير باستدعاء قصص الأنبياء مع أمهم، ومن بين من تكرّر آدم . عليه السلام حين خرج من الجنّة بإغواء من إبليس، وإبراهيم مع ضيوفه، ويوسف مع نساء مصر، وموسى مع بني إسرائيل، وقوم عاد وثمود وطسم وجديس . وقد كان التناص في إطار التقاطع أو التمازج مع القصّة القرآنية أحيانا، وفي إطار التباين الذي يكشف عن تناقض واضح في إطار آخر . وقد أضاف في كلتا الحالتين عمقا وخصبا للمادّة المطروقة، وساهم في تقريب الأزمنة، ودمج التجارب الإنسانيّة.

Abstract: This study investigates the use of Quranic stories in the panegyric and love poetry of Abu Tammam. The study has revealed a great interest in the stories of prophets and their nations. The stories that are mentioned repeatedly include the story of Adam -peace be upon him- when he got out of heaven after Satan seduced him, the story of Abraham and his guests, Joseph with the women of Egypt, Moses with the children of Israel, and the people of Aad , Thamud, Tasam, and Jadis. The Intertextuality used in Abu tammam`s poems shows both the similarites and the differences between the character in the qura`nic story and the one that the poem is about. This adds depth to the poem and intergrates human experience into them

مقدمة

القرآن ينبوع ثرّ من مصادر الاستلهام الشعري؛ لذلك يعكف الشعراء على تخصيص موادهم من مفرداته ومعانيه وشخصياته، بما يتلاءم وتجاربهم الخاصّة أحيانا، وتجارب شخصيات نصوصهم أحيانا آخر . وأبو تمام واحد من الشعراء الذين كتّفوا من استدعائهم للخطاب القرآني، وامتصاص ما فيه لتشكيل فضائه الشعري، فجاءت نصوصه مشبعة بالتقاطع، والتمازج، والتباين، فاكتسبت رحابة

في الخطاب، وعمقا في تبنيير الفكرة، وحرية في التأويل، قلما نجدها عند غيره من الشعراء. (1)

وهو ينطلق من مرجعية واقعية، وأساس معرفي وجودي، لكنّه يعيد النظر في تعالق الأسماء والأشياء، فيشكّل قصيدة تحمل ملامح جديدة، وهو في معظم نصوصه يعمد إلى الغريب في مفرداته ومعانيه وصوره بوعي وإدراك، ولا يابه كثيرا بردود النقاد، يعينه على الثبات ثقافته الواسعة، وقدرته على الإمساك بالعلاقات، فهذا أحدهم ينكر عليه قوله:

لا تَسْقِي مَاءَ الْمَلَامِ فَإِنِّي صَبُّ قَدْ اسْتَعَذِبْتُ مَاءَ بُكَائِي (2)

ويطلب منه ساخرا أن يملأ له زجاجة من ماء الملام، فيرد عليه: أرسل لي ريشة من جناح الذلّ (3)، مستحضرا قوله تعالى: "واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربياني

(1) ينظر: هياجنة، محمود سليم محمد: الخطاب الديني في الشعر العباسي إلى نهاية القرن الرابع الهجري، عالم الكتب الحديث، إربد، جدارا للكتاب العالمي، عمان، 2009، ص 216 وما بعدها.

(2) أبو تمام: الديوان، شرح الخطيب التبريزي، تح محمد عبده عزّام، دار المعارف، مصر، 1964، م 1، ص 22.

وقد دافع الأمدى عن أبي تمام في استعارته هذه في قوله: "قد عيب وليس يعيب عندي ؛ لأنه لما أراد أن يقول: "قد استعذبت ماء بكائي " جعل للملام ماء ؛ ليقابل ماء بماء، وإن لم يكن للملام ماء على الحقيقة، كما قال الله عزّ وجلّ " وجزاء سيئة سيئة مثلها " سورة الشورى، (آية 40).

ومعلوم أنّ الثانية ليست بسيئة، وإنما هي جزء عن السيئة، وكذلك: "إن تسخروا منّا فإننا نسخر منكم " سورة هود، (آية 38). والفعل الثاني ليس بسخرية، ومثل هذا في الشعر والكلام كثير مستعمل.

الأمدى، الإمام أبي القاسم الحسن بن بشر بن يحيى: الموازنة بين أبي تمام حبيب بن أوس الطائي وأبي عبادة الوليد بن عبيد البحر الطائي، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، ص 244.

(3) يعلّق الصولي على هذه الاستعارة بعد استحضار الآية الكريمة الواردة أعلاه ويقول في وصفها: "أجلّ استعارة وأحسنها، وكلام العرب جار عليها " ثمّ يستحضر قول العنابي:

أَكَايِمَ لَوْعَاتِ الْهَوَى وَبِيْبِيْهَا تَخَلُّلُ مَاءِ الشُّوْقِ بَيْنَ جُفُونِي

وقول أبي نواس:

لَمَّا نَدَبْتُكَ لِلجَزِيلِ أَجَبْتَنِي لِيْبِيْكَ وَاسْتَعَذِبْتَ مَاءَ بُكَائِي

الصولي: أبو بكر محمد بن يحيى: تح خليل محمود عساكر وآخرين، قدّم له أحمد أمين، الكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د. ت)، ص 37.

خليف، يوسف: في الشعر العباسي نحو منهج جديد، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، (د. ت)، ص 105.

وأخر يقول: " دخلت على أبي تمام الطائي وقد عمل شعرا لم أسمع أحسن منه، وفي الأبيات بيت واحد ليس كسائرهما، فعلم أنني وقفت على البيت فقلت: لو أسقطت هذا البيت. فضحك وقال لي: أترك أعلم بهذا مني، إنما مثل هذا مثل رجل له بنون جماعة، كلهم أديب جميل متقدم، ومنهم واحد قبيح متخلف، فهو يعرف أمره، ويرى مكانه، ولا يشتهي أن يموت... " (2)

وتأتي هذه الدراسة لتستجلي أشكال توظيف القصة القرآنية في شعر أبي تمام الذي تزعم مدرسة البديع القائمة على تمجيد العقل، وتقديس المعرفة بشتى أشكالها؛ ذلك لأن الشعر عنده وعند من وافقه في المذهب، ليس تعبيراً عن انفعالات وعواطف فحسب، بل هو صناعة عقلية يمتزج فيها العقل بالشعور ويتفوق عليه. فكانت هذه ثورة تنظر لتزاوج العلم والشعر في إطار الفن الهادف الذي لا يعترف بما لا يجسد حقيقة إنسانية.

وستوزع هذه الدراسة في جزأين:

الأول: التناص مع القصة القرآنية في إطار التقاطع والتباين في قصيدة المديح.

والثاني: التناص مع القصة القرآنية في إطار التقاطع والتباين في قصيدة الغزل.

التناص مع القصة القرآنية في إطار التقاطع والتباين في قصيدة المديح

إنَّ أبا تمام يلغي الفواصل والحدود بين الشخصيات والوقائع في نصوصه فتتحد التجارب، وتختلط الأحداث، ما يجعل النص ملتقى لأكثر من زمن، وأكثر من حدث، وأكثر من دلالة، فيتشكّل التعالق النصّي على حقيقته، أو ما يسمّى بتناص النصوص. ومن أكثر القصص التي تردت في شعره قصة يوسف . عليه السلام . فقد أخذها في غير قصيدة من مدائحه لأبي سعيد النخعي ؛ ليعمق بها معانيه، ويفتح مساحات أوسع من التأويل. ومن ذلك قوله:

أيهذا العزيز قد مسنا الضر رُ جميعا وأهأنا أشتات⁽³⁾
ولنا في الرجال شيخ كبير ولدينا بضاعة مُرجاهُ
قلّ طلابها فصارت كسادا وتجارنتا بها ترهات

(1) الإسراء، آية (24)

(2) الأمدي: الموازنة بين الطائنين، ص 107.

(3) الإجزاء: التعجيل، من سوق الناقة ودفعها، ثم انتقلت الدلالة إلى البضاعة.

فاحتسب أجرتنا وأوف لنا الكيل - مل وتصدق فإننا أموات⁽¹⁾

والظاهر أن توظيف أبي تمام لهذه القصة القرآنية لم ترض الممدوح، فيروي الصولي أن الممدوح عبدالله بن الطاهر لما قرأ هذا الشعر ضحك، وقال: "قولوا لأبي تمام لا تعاود مثل هذا الشعر، فإن القرآن أجل من أن يُستعار شيء من ألفاظه للشعر" فوجد عليه.⁽²⁾

والظاهر أن سبب غضب الممدوح من هذا التوظيف هو التقاطع مع المفردات القرآنية في قصة يوسف تقاطعا كبيرا تصبح فيها مفردات الأبيات عينا على قوله تعالى: "فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضرُّ وجئنا ببضاعةٍ مُرجاةٍ فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين"⁽³⁾

ويوظف القصة ذاتها مستدعيا بعض مفرداتها، دون أن يكون في استدعائه مزج، أو مكافأة في عدد المفردات، وسياقها في مديح مالك بن طوق في قوله:

(¹) يقول الثعالبي أراد أن يقول: "أيها العزيز أعز الله نصرك وأعلى أمرك. قد مسنا وأهلنا الضرُّ وأنحى علينا الزمان المرَّ وعمنا الاختلال والشنات. وتفرق منا البنون والبنات. ولنا شيخ كبير أخذ الزمان من جسمه وقوته كما أخذ من حاله ونعمته. وابتلاه الله بالعدم على الهرم فصرنا من ذوي المحال المنخفضة الدرجات، وأصحاب البضائع المزجاة والشأن في الكساد. الذي هو أخو الفساد. وسوء أثره على تجارة لنا يسيرة. وبلغه حقيرة. نقاسي منها قذى العيون وشجي الحلوq وغصص الصدور فاحتسب الأجر الجزيل. والشكر الجميل. بنظرة كريمة منك تحيينا ونحن أموات. وتشرنا ونحن رفات. وأحسن بنا إن الله مع المحسنين" الثعالبي: رسائل الثعالبي الكناية والتعريض، دار صعب، بيروت، (د. ت)، ص22. اختلفت رواية البيهقيين الأخيرين عند الصولي، فقد أوردهما على النحو الآتي:

قلّ طلأها فأضحت خسارا فتجارتتنا بها ترهات
فاحتسب أجرتنا وأوف لنا الكيل - مل وصدق فإننا أموات

الصولي: أخبار أبي تمام، ص211.

(²) وقد يكون هناك سببان آخران لغضب الممدوح عبدالله بن الطاهر على أبي تمام وهما: أن أبا تمام لما قدم على عبدالله أمر له بشيء لم يرضه ففرقه، فغضب عليه لاسقلاله ما أعطاه، وتفريقه إياه. أمّا السبب الآخر فهو إشغال أبي تمام عن الممدوح بمغنية كانت تغني بالفارسية، وكان عبدالله كلما سأل عنه أخبر أنه عندها ففقص عليه

الصولي: أخبار أبي تمام، ص211 . 213.

(³) سورة يوسف، آية (88)

مِنَ الْقِلَاصِ اللَّوَاتِي فِي حَقَائِبِهَا بضاعةً غيرَ مُرْجاةٍ مِنَ الْكَلِمِ (1)

ويتواصل مع القصة ذاتها في قوله:

ولمَّا التقي البِشْرانِ أنقَعَ بِشْرُنَا لبِشْرِهِمْ حَوْضًا مِنَ الصَّبْرِ مَفْعَمًا
وساعده تحت البياتِ فوارِسُ تَخَالَهُمْ فِي فَحْمَةِ اللَّيْلِ أَنْجَمًا
وقد تَثْرَثُهُمْ روعةٌ ثمَّ أَحْدَقُوا بِهِ مِثْلَمَا أَلْفَتَ عِقْدًا مُنْظَمًا
بِسَافِرٍ حُرِّ الوَجْهِ لَوِ رَامَ سَوْءَةً لَكَانَ بِجَلَابِ السُّجَى مُتَلْتَمًا
متلَّتْ له في الظَّلامِ بصورةٍ على البُعْدِ أَفْتَتُهُ الحِياءِ فَصَمَمًا
كيوسفَ لَمَّا أن رأى أمرَ رَبِّه وقد همَّ أن يعروري الذَّنْبَ أَحْجَمًا
وقد قالَ إمَّا أنْ أَعَادَرَ بَعْدَهَا عَظِيمًا وَإِمَّا أنْ أَعَادِرَ أَعْظَمًا (2)

فأصحاب أبي سعيد الثَّغري يجُلُونه ويهابونه في قريه منهم وبعده عنهم، وإذا ما فَكَر أحدهم بالفرار من أرض المعركة، تذكره فعاد إلى صوابه، شأنه في ذلك شأن يوسف عليه السلام، الذي راودته امرأة العزيز، فثبت على موقفه لَمَّا رأى برهان ربِّه، موظفًا قوله تعالى: "وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ولقد هممت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا الْمُخْلِصِينَ" (3).

ويعود في موطن آخر إلى قصة يوسف عليه السلام مع أهل مصر، فقد نجَّاهم بأمر من الله . عز وجل . من هلاك محتم بسبب القحط الذي سيحلُّ بهم، كما أخبرت به رؤيا الملك، أما أبو سعيد الثغري فقد نجَّى الناس من ضيق يعدُّ أشدَّ من ضيق أهل مصر، وقد كان تفاعل المكان مع الزمن عبر الإنسان الفاعل المؤثر (4). يقول:

لا خَلْقَ أَرَبَطَ جَاشًا مِنْكَ يَوْمَ تَرَى أبا سعيدٍ ولم يبَطِشْ بِكَ الرُّؤدُ
.....
وقائعٌ عَذِبَتْ أبنائُها وحَلَّتْ حتَّى لَقْدَ صارَ مهجورًا لها الشُّهُدُ

(1) أبو تمام: الديوان، م (3)، ص 186.

(2) المصدر السابق، م (3)، ص 238 - 240.

(3) سورة يوسف، الآيتان (23، 24).

(4) سليطين، فيصل: أبو تمام في دائرة الضوء، دار البيابيع، دمشق، (د. ت)، ص 74.

إِنَّ ابْنَ يَوْسُفَ نَجَّى النَّعْرَ مِنْ سَنَةٍ أَعْوَامُ يَوْسُفَ عَيْشَ عِنْدَهَا رَعْدُ⁽¹⁾

واللافت أن الشاعر قد جعل ضيق أهل مصر في زمن يوسف . عليه السلام . رعداً مقارنةً مع ضيق الناس في زمن النُّعْرِي، وبهذا يكون قد تجاوز مضمون الاستحضار، وأبعد في تبئير الفكرة، وتعميقها.

وهو في استحضاره للمضمون القرآني متأثر بقوله تعالى: "يوسفُ أيُّها الصديقُ أفنيتنا في سبعِ بقراتٍ سمانٍ يأكلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعُ سُنْبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأَخْرَجَ يَابَسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ. قال تزرعونَ سَبْعَ سِنِينَ دأباً فما حصدتم فذروه في سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ. ثم يأتي من بعد ذلك سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدِمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مما تُحْصِنُونَ"⁽²⁾

ويتجاوز المضامين ليتواصل مع قصة يوسف في أسلوب الخطاب⁽³⁾، ومن ذلك قوله في مديح المعتصم:

يا صاحِبِي تَقْصِيَا نَظْرِيكُمَا تَرَيَا وَجوهَ الأَرْضِ كَيْفَ تَصَوَّرُ⁽⁴⁾

مستفيداً من قوله تعالى على لسان يوسف . عليه السلام .: "يا صاحبي السجن، أما أحدكما فيسقي ربه خمراً"⁽⁵⁾.

ومن القصص الأخرى التي تقاطع معها قصة موسى . عليه السلام . مع قومه، فما هو يجري مماثلة بين إنقاذ الممدوح (موسى بن إبراهيم الرافقي) لقومه من لزيات الزمان وأهواله، وإنقاذ موسى . عليه السلام . لقومه من ظلم فرعون وتجبره. يقول:

عُدْنَا بِمُوسَى مِنْ زَمَانٍ أَنْشِرْتْ سَطَوَاتُهُ فِرْعَوْنَ ذَا الأَوْتَادِ
جِبَلٌ مِنَ المَعْرُوفِ مَعْرُوفٌ لَهُ تَقْيِيدُ عَادِيَةِ الزَّمَانِ العَادِي
ما لامرئٍ أَسَرَ القِضَاءَ رِجَاؤُهُ إِلَّا رِجَاؤُكَ أَوْ عِطَاؤُكَ فِئَادِي⁽⁶⁾

(1) أبو تمام: الديوان، م (2)، ص 16-21.

(2) سورة يوسف، الآيات (46-48).

(3) سلطان، منير: بديع التراكيب في شعر أبي تمام، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د. ت)، ص 257.

(4) أبو تمام: الديوان م (2)، ص 194.

(5) سورة يوسف، الآية (41).

(6) الديوان: أبو تمام، م (2)، ص 129.

التناص مع القصة القرآنية في شعر أبي تمام

موظفًا قوله تعالى: "وفرعون ذا الأوتاد. الذين طغوا البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب"⁽¹⁾

وفي الإطار نفسه يستعين بتشابه الاسمين في إجراء المقاربة. يقول:

فكأنهم بالعجل ضلوا جعبة وكأن موسى إذ أتاهم موسى⁽²⁾

إن الشاعر يراعي بإدراكه ومعرفته الجزء الموافق لما في ذهنه فيلنقطه ويجري الموازنة، واستغلاله هنا للاسم لا يعني بأي حال أن الأسماء ذات أبعاد حددت مسبقًا ولا تتغير، بل هي متمددة في دلالاتها وظلالها، ويمكن للشاعر أن يلتقط الجزء الذي يعنيه من حياتها ؛ لتعينه على التوضيح، أو المبالغة.

ويستدعي قصة موسى . عليه السلام مع الذات الإلهية في الواد المقدس حين ذهب ليأتي أهله بقبس من النار التي رآها، فكلفه الله عز وجل بشرف التبليغ فصار نبيًا مباركا وقد جاء هذا في مديح الشاعر لمالك بن طوق الذي أراد الوفاة على الخليفة فتنبأ له الشاعر نيل الخطوة، والمكانة الرفيعة موظفًا قوله تعالى: " وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارًا فقال لأهله امكثوا إنني آنست نارًا لعلني آتاكم منها بقبس أو أجد على النار هدى. فلما أتاهم نودي يا موسى. إنني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى. وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى"⁽³⁾

يقول:

حلفت بالبيت ذي الملبين في الـ إسلام في الحل قبل والخمس
أن ابن طوق بن مالك ملك مالك أمر المكارم الشمس
.....
تبنى المعالي في ظلّه وله حظ من الملك غير مختلس
فإن موسى صلى على روحه الرب صلاة كثيرة القدس
صار نبيًا وعظم بعينه في جذوة للصلاء أو قبس⁽⁴⁾

(1) سورة يوسف، الآيات (10 - 13).

(2) الديوان: م (2)، ص 269.

(3) سورة طه، الآيات (9 - 13).

(4) الديوان: أبو تمام، م (2)، ص 240، 241.

إنَّ هذا التفاعل ليس مجرد اقتباس، أو تضمين، أو تأثر بمصدر ديني، ولو كان كذلك لاستطاع القارئ المطلع أن يحددها بسهولة، ولكنها تتفاعل بوصفها ممارسات دلالية متماسكة.

وفي موطن آخر يدفع عن ممدوحه الفضل بن صالح الهاشمي تهمة قتلٍ ألصقت به مستحضرا قصّة الإسرائيلي الذي اتُّهم ظلما بقتل أخيه ليتزوّج من امرأته (أتراك)، وكانت البقرة الصفراء دليلا، مستفيدا من قوله تعالى: " وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ. فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يُحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تَعْقِلُونَ " (1)

يقول:

نارين أوقدتا في كشح كاشحها	نصلان قد أنبتا في قلب شائنها
بحجة تُسرج الدنيا بواضحها	وكذب الله أقوالا فرقت بها
ذبيحة المصطفى موسى لِدأبجه (2)	مضيفة نطقت فينا كما نطقت

ويستحضر في سياق آخر من مديح أبي سعيد قصة أهل الكهف، موظفا قوله تعالى: " وتحسبهم أيقاظا وهم رقودٌ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا " (3) يقول:

زأوا ليث العريفة وهو ملق ذراعيه جميعا بالوصيد (4)

ويتواصل مع قصّة ضيوف إبراهيم . عليه السلام . في إشادته بكرم ممدوحه، مستفيدا من قوله تعالى: " هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين " (5).

يقول:

للاجود سهم في المكارم والتقى	ما ربه المكدي ولا المسهوم
وبيان ذلك أن أول من حبا	وقرى خليل الله إبراهيم

(1) سورة البقرة، الآيتان (72 ، 73)

(2) الديوان: أبو تمام، م (1)، ص 354.

(3) سورة الكهف، الآية (18)

(4) أبو تمام: الديوان، م (2)، ص 39.

(5) سورة الذاريات، الآيات (24 - 26)

التناص مع القصة القرآنية في شعر أبي تمام

أَعْطَيْتَنِي دِيَةَ الْقَتِيلِ وَلَيْسَ لِي عَقْلٌ وَلَا حَقٌّ عَلَيْكَ قَدِيمٌ⁽¹⁾

إنَّ شعر أبي تمام " منفتح على الوجود... يراجع التسميات بحكم ما يدركه منها في علاقتها بمسمياتها، ومنفتح عليها انفتاحا تاريخيا... والانفتاح على الوجود الواقعي أو الحقيقي مشرع على الشعر...، غير أنه لا يشرع عليه ليصوره أو يعكسه أو يعبر عنه فقط مثلما يفتح الكلام على المرجع بالإشارة إليه من خلال العلامات، فالشعراء الكبار، على الأقل، يخلقون عوالم مثلما خلقت اللغة عالما من العلامات أصبح معوضا للعالم الحقيقي... والعالم الشعري يعيد صياغة النظام اللغوي ويعيد ترتيبه وتنظيمه... وذلك بالانطلاق مما ليس له في الوجود وجود حقيقي حتى لا يحدّ منه الكلام بمراجعته أو يتقيد بقيود التعبير وقياسات المنطق والاختبار"⁽²⁾

ويستعين بقصة هلاك قوم عاد وثمود في إطار مديح محمد بن يوسف الطائي؛ ليقارب بين مصير أعداء الممدوح ومصير قوم عاد وثمود، مستفيدا من قوله تعالى: " ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد "⁽³⁾ ومن قوله تعالى: " وأتته أهلك عادا الأولى وثمودا فما أبقي"⁽⁴⁾

ويستكمل صورة التهديد مع ممدوح آخر هو مالك بن طوق التغلبي، فيهدّد أعداءه بمصير يماثل مصير عاد وإرم إن ظلوا على غيهم، ويشبّه بغيهم بجمل يرعى من وادي النقم، يقول:

مهلا بني مالك لا تجلبن إلى
فأبي حقد أترتم من مكاميه
لم يألكم مالك صفحا ومغفرة
.....
لا تجعلوا البغي ظهرا إته جمل
نظرت في السير الأولى خلت فإذا
أفنى جديسا وطسما كلّها وسطا
حي الأراقم دُولول ابنة الرقيم
وأبي عوصاء جشمتم بني جشم
لو كان ينفخ قين الحي في فحم
من القطيعة يرعى وادي النقم
أيامه أكلت باكورة الأمم
بأنجم الدهر من عاد ومن إرم⁽⁵⁾

(1) أبو تمام: الديوان، م (3)، ص 292.

(2) الواد: حسين: اللغة الشعر في ديوان أبي تمام، دار الجنوب للنشر، تونس، (د. ت)، ص 90، 91

(3) سورة الفجر، الآيات (6 - 8)

(4) سورة النجم، الآيتان (51-50)

(5) أبو تمام: الديوان، م (3)، ص 188 - 192.

ومرّة أخرى يستعين في مديحه بقصص هلاك العماليق، وجديس، وفي هذه المرّة مع أبي المغيـث موسى بن إبراهيم. يقول:

فكأنّ طَسْماً قَبْلُ كانوا جِيْرَةً بِكَ والعماليقِ الألى وجديسا
وأرى ربوعك مَوْجِشَاتٍ بَعْدَهَا قَدْ كُنْتَ مألوفَ المحلِّ أنيسا
أثرى الفِراقَ يَظُنُّ أنّي غافلٌ عنه وقد لَمَسْتُ يداهُ لميسا (1)

ويأتي بقصة الهلاك بالصيحة في تقابلية، يتماهى فيها مصير جند توفيل إمبراطور بيزنطة ومصير ثمود، مشيدا بخالد بن يزيد الشيباني الذي لاحق جند توفيل، فساد الذعر بلاد الروم، وكأنّ صيحة أطارت قلوبهم، وفتنت قواهم. يقول:

ولمّا رأى توفيلُ راياتك التي إذا ما اتلّبت لا يقاومها الصُّلبُ
تولّى ولم يأل الردى في اتّباعه كأنّ الردى في قصده هائم صبُ
كأنّ بلاد الروم عمّت بصيحةٍ فضمت حشاها أو رعا وسطها السُّقبُ
.....
غدا خائفا يستجدُّ الكُتّبَ مدعنا عليك فلا رُسلُ ثنتك ولا كُتّبُ (2)

ويقول في موطن آخر يمدح المعتصم ويذكره أمر الأفشين (3):

يا قابضا يدَ آلِ كاوسِ عادلا أتبع يميننا منهم بيّسارِ
ألجق جبيننا داميا رملته بقفا، وصدرا خائنا بصِدارِ
واعلم بأنك إنّما تلقّيتهم في بعض ما حَفروا من الآبارِ
لو لم يكذّ للسامريّ قبيلهُ ما خارَ عجلُهُم بغيرِ خُوارِ
وثمود لو لم يدهنوا في ربهم لم تُرمَ ناقته بسيفِ قُدارِ (4)

إنّ هذا الاستحضار فيه توجيه تحريضي للخليفة المعتصم لاستئصال شأفة الأفشين والقضاء

(1) المصدر السابق، م (2)، ص 263.

(2) أبو تمام: الديوان، م (1)، ص 189، 190.

(3) علما أنّ الأفشين حاول الهرب من المعتصم، ولكن أمره كشف فأخذ وسجن وظلّ في السجن حتّى مات، ثم أُخرج وصُلب، ثم أُحرق سنة 226.

ينظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967 م، 5 \ 257.

(4) أبو تمام: الديوان، م (2) ص 206.

التناص مع القصة القرآنية في شعر أبي تمام

على أنصاره⁽¹⁾، فقد كان لا بد للشاعر من البحث في أخبار الأمم السابقة للإمساك بما يمكن أن يسعفه في هذا المنحى التحريضي، فيجد قصة السامري، وقصة ثمود. فالسامري ارتكب جرماً عظيماً حين صنع العجل الذي عبده قوم موسى، وقد كانت القبيلة توافقه على ذلك، وتشجعه، ولهذا غدا الاستحضار استحضاراً محاكاةً.

أما ثمود فقد طلبوا من صالح . عليه السلام . آية بيّنة تثبت نبوته، فأخبرهم أنّ هذه الناقة لها شرب يوم معلوم، وحدّثهم من إيدائها، ولكنهم خالفوه، فتربصوا بها، مستخدمين شتى الوسائل، بما في ذلك إغراء النساء، فنمّ لهم ما أرادوه على يد قدار بن سالف، وما كان له أن يفعل لولا تشجيع قومه، وقد أراد أبو تمام تحريض المعتصم على قوم الأفسين ؛ لأنهم هم من حرّضوه على الغدر .

ويتناول حرق الأفسين وصلبه في إطار ساخر موظفاً قصة الرسول محمد . صلى الله عليه وسلم . وأبي بكر في الغار المذكورة في قوله تعالى: " إِنْ تَتَّبِعُونَ فِئْتَانًا مِنْهُمْ قَدْ خَلَّ مِنْهُم آيَاتُنَا فَأَنْهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ لِقَدْ كُنَّا فَاعِلِينَ " .⁽²⁾ يقول:

ولقد شفى الأحشاء مِنْ بُرْحَائِهَا	أَنْ صَارَ بَابُكَ جَارَ مَا زِيَّارِ
ثَانِيهِ فِي كَيْدِ السَّمَاءِ وَلَمْ يَكُنْ	لَا تَيْنِ ثَانٍ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ
وَكَأَنَّمَا انْتَبَدَا لَكَيْمَا يَطْوِيَا	عَنْ نَاطِسٍ خَبِرَا مِنَ الْأَخْبَارِ
سَوْدُ الثِّيَابِ كَأَنَّمَا نَسَجَتْ لَهُمْ	أَيْدِي السَّمُومِ مَدَارِعَا مِنْ قَارِ
بَكَرُوا وَأَسْرُوا فِي مُثُونِ ضَوَامِرِ	فِيَدَتْ لَهُمْ مِنْ مَرْبِطِ النَّجَارِ
لَا يَبْرَحُونَ وَمَنْ رَأَهُمْ خَالَهْمُ	أَبْدَا عَلَى سَفَرٍ مِنَ الْأَسْفَارِ
كَادُوا النَّبُوَّةَ وَالْهُدَى فَنَقَطَعَتْ	أَعْنَاقُهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَضْمَارِ
جَهْلُومًا فَلَمْ يَسْتَكْثِرُوا مِنْ طَاعَةٍ	مَعْرُوفَةٍ بِعِمَارَةِ الْأَعْمَارِ ⁽³⁾

فيصورهما مصلوبين كأنهما اعتزلا الناس؛ ليتحدثا بخبر لا يريدان نشره، وجلودهما وكأنها لباس نسجته رياح السموم، أما لونها فأسود وكأنها دروع من القار، أما الخشب الذي صلبوا عليه فهو خيل

(1) تناول هذا الأمر غير شاعر: ينظر: بهجت، مجاهد مصطفى: التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول، ط1، 1982، وزارة الأوقاف العراقية، العراق، سلسلة الكتب الحديثة الكتاب الثامن عشر، 373، وما بعدها.

(2) سورة التوبة، الآية (40).

(3) أبو تمام: الديوان، م (2)، ص 206 - 208.

من صنع نجار يركبونها طوال الوقت، ومن يطالعهم يحسبهم مهينين للسفر⁽¹⁾.

ويتحول في استحضاراته لهلاك الأمم القديمة من البحث في تفاصيل العلاقات بين الناس في زمانه من جهة، وبعض الأمم التي أشار إليها القرآن الكريم من جهة ثانية، إلى استقطاب النصوص باتجاه التجربة الذاتية، فهي هو يصوت بالدنيا يريد خلودا مستحيلا، يؤكد استحاله مصير طسم وجديس، يقول:

أصوتُ بالدنيا وليست تجيبني أحاولُ أن أبقي وكيف بقائيا
وما تبرح الأيام تحذفُ مُدَّتِي بعدَ حسابٍ لا كعدِّ حسابيا
لتمحو أثاري وتُخلِقَ جِدَّتِي وتخلي من روعي بكره مكانيا
كما فعلتُ قبلي بطسمٍ وجُرهم وآل نمودٍ بعدَ عادِ بنِ عاديا

هذه نماذج تكشف عن كثرة التناص في موضوع المديح، علما أن التناص في الغرض المقابل للمديح وهو الهجاء، كان قليلا إذا ما استثنينا مهاجمة الشاعر لأعداء الممدوحين في إطار غرض المديح، ولعل سيدنا آدم كان الأكثر حضورا في التناص الهجائي، ومن بين ما تكرر قصة خروج آدم عليه السلام من الجنة؛ لوجود إبليس في قصة الخروج، ولضعف النفس البشرية أمام شهوات النفس، وقصة الطوفان، ونسوق مثالين اثنين للتدليل، فهي هو يجعل المهجو أسوأ البشر، وسببا في نزول آدم إلى الأرض. يقول:

لو فرّ شيء قط من شكله فرّ إن بعضك من بعض
كوكك في صلب أبينا آدم أهبطنا جمعا إلى الأرض

وفي موطن آخر يستدعي قصة الطوفان ليرد على عتبة بن أبي عاصم، بعد أن هاجم بني عبدالكريم الطائيين،، مشبها ردة فعله بالطوفان، فكما أنه لم يكن هناك راد وعاصم من الطوفان في زمن نوح. عليه السلام. لا عاصم اليوم للمهجو من الشاعر. يقول:

يا ابن أبي عاصم ولا عاصم ويلك من سطوتي ومن غضبي

وهذا مستمد من قوله تعالى: "قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رجم"⁽²⁾.

(1) ينظر النوايسة: حكمت: التناص في شعر أبي تمام، مقالات ودراسات
www.arab_ewriters.com?action=chowitem

(2) سورة هود، آية 43.

التقاطع والتمازج في قصيدة الغزل

يكثر الاستحضار القرآني في نصوص الغزل، لأسباب عدّة، أهمّها إظهار مواطن الجمال في المحبوبة، وفي هذا السياق يكتّف أبو تمام من استدعاء جمال يوسف عليه السلام وأثره في نفوس نساء مصر، وفي مواطن أخرى يهدف الشاعر إلى الحديث عن جنة الحبيب التي تقارب جنة آدم، وفي هذا الصّدّد يستدعي خروج آدم من الجنة ليشير إلى خسارته قرب المحبوبة.

ومن النماذج مقاربة أبي تمام بين سلوك المحبوبة معه، وسلوك نساء مصر مع يوسف . عليه السلام . فالمحبوبة تكثر من لومه وعتابه ؛ لكثرة أسفاره وترحاله، وهي تريده أن يبقى قريباً منها، مهتما بعواطفها، ولهذا يدخلها الشاعر مع صواحب يوسف اللواتي انجذبن إليه، وقطعن أيديهنّ في إطار تمازجي.

والشاعر نجا من إغراءات المحبوبة حين تمسك بعزمه على التّجّاح ليدرك آمله، متجاوزاً أهوال الزمان، ومخاطر الليالي، ورغبات المحبوبة، كما نجا يوسف . عليه السلام . حين تغلّب على شهوات النّفس البشريّة بتوفيق من الله . عزّ وجلّ . يقول:

هَنَّ عَوَادِي يُوسُفٍ وَصَوَاجِبُهُ	فَعَزَمًا قَفْدَمَا أَدْرَكَ السُّؤْلَ طَالِبُهُ
أَعَادَلْتِي مَا أَحْشَنَ اللَّيْلَ مَرْكَبَا	وَأَحْشَنُ مِنْهُ فِي الْمُلَمَّاتِ رَاكِبُهُ
ذَرِينِي وَأَهْوَالَ الزَّمَانِ أَفَانِهَا	فَأَهْوَالُهُ الْعُظْمَى تَلِيهَا رَغَائِبُهُ
أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الزَّمَاغَ عَلَى السَّرَى	أَخُو التُّجْحِ عِنْدَ النَّائِبَاتِ وَصَاحِبُهُ ⁽¹⁾

فهذا ينسجم مع إيمان أبي تمام بأهميّة الحركة، والسفر، فالاعتراب يفضي إلى نجاح وتجدد، ويزيد من وعي الإنسان وإدراكه ولهذا يقول:

وَطُولَ مَقَامِ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مُخْلِقٌ	لِدِيَابِجَتَيْهِ فَاغْتَرِبُ تَتَجَدَّدُ
فَأَيُّ رَأَيْتُ الشَّمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً	إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدٍ ⁽²⁾

وهو الذي يجعل من نفسه خليفة للخضر صاحب موسى عليه السلام في كثرة الترحال بعد أن

(¹) أبو تمام: الديوان، م (1)، ص 216 - 219.

(²) المصدر السابق، م (2)، ص 23.

تنقل بين مصر والعراق والشام وخراسان. يقول:

خَلِيفَةُ الْخِضْرِ مِنْ يَرْبُوعٍ عَلَى وَطَنِ فِي بَلَدَةِ فَظْهُورِ الْعَيْسِ أَوْطَانِي⁽¹⁾

ويقارب في مشهد آخر بين جمال المحبوبة، وجمال يوسف . عليه السلام . مستحضرا في هذا السياق قصّة التأمّر على يوسف، ورميه في الجبّ. يقول:

وشيبه الذي استقلّت به العيب — ر عن الجبّ خاضعا كالطّايح

موظفا قوله تعالى: " قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَاتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ "⁽²⁾

ومن المقاربات الأخرى نموذج يقارب فيه أبو تمام بين خطيبتين، خطيبة آدم عليه السلام، حين أكل من الشجرة بإغواء من إبليس، وخطيبة الشاعر مع المحبوبة، فكلتا هما أفضت إلى نتائج غيرت حياة الاثنين، فأدم أخرج من الجنّة، والشاعر خسر قرب المحبوبة الذي هو جنّته، لكنّ الفارق بين الذنبيين هو أنّ الأول مكشوف، ولا جدال فيه، ويتبعه اعتراف بالذنب، واستغفار من الخطيئة، وأثر هذا الذنب على البشرية جمعاء، أمّا ذنب الشاعر فليس كذلك، لكنّ المحبوبة تراه كبيرا، شأنها شأن معظم النساء، وما يدعم رفضه لاعتقاد المحبوبة قوله: " صار ذنبي كذنب آدم "

بأبي شادنٍ تتسمتُ من عيب — نيه يوم الخميس ربح الصدود
صار ذنبي كذنب آدم يا عم — رو فأخرجتُ من جنان الخلود

فالمعنى جلّي في قوله تعالى: " وقلنا يا آدمُ اسكنْ أنتَ وزوجُكَ الجنّةَ وكُلا منها رَعَدَا حيثَ شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما ممّا كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضُكم لبعضٍ عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين "⁽³⁾

وتتباين محبوبة الشاعر مع بلقيس ملكة سبأ المذكورة في قصّة . سليمان عليه السلام . فلولا أنّ المحبوبة صغيرة السنّ، وليس لها عرش يماثل عرش بلقيس لكانت هي بلقيس نفسها، وهذا يحيلنا إلى حمل عرشها إلى سليمان . عليه السلام .. يقول:

(1) المصدر السابق، م (3)، ص 308.

(2) سورة يوسف، الآية (10).

(3) سورة البقرة، الآيتان (35، 36).

التناص مع القصة القرآنية في شعر أبي تمام

قَدْ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِهَجَةٍ وَدَدًا وَحُسْنًا فِي الصَّبَا مَعْمُوسَا
لَوْلَا حَدَاتُهَا وَأَنْكِي لَا أَرَى عَرِشًا لَهَا لظَنَنْتُهَا بِلُقَيْسَا⁽¹⁾

وكما تختلف المحبوبة في بعض صفاتها عن بلقيس، يختلف الشاعر في مخاطبته صاحبها له، عدله في هواه، عن قوم عاد وثمود، والشاعر يريد من كشف هذا التباين القول: إنه لا يمتلك صفات العمالقة، فقد يضعف، وينذل أمام سطوة الحبِّ ومتطلباته، ولهذا فيريد منه أن يعزره. يقول:

لَا تُتَكَبَّرَنَّ أَنْ يَشْتَكِي ثِقَلَ الْهَوَى بَدَنِي فَمَا أَنَا مِنْ بَقِيَّةِ عَادِ
كَمْ وَقَعَةٍ لِي فِي الْهَوَى مَشْهُورَةٍ مَا كُنْتُ فِيهَا الْحَارِثُ بَنَ عُبَادِ⁽²⁾

هذه نماذج مختارة من توظيف أبي تمام للقصص القرآنية، وكلّ نموذج يحيلنا إلى تداعيات وعلاقات تستدعي التأمل، والدراسة المتأنية؛ لأنَّ أبا تمام شاعر مثقّف ثقافة واسعة، وقد جمع بين العربية القديمة، والإسلامية، واليونانية، والهندية، والفارسية، وأخضع شعره للفلسفة والمنطق، فجاء شعره معمّقا، مكثّفا، معمّدا في مواطن كثيرة.

الخاتمة

المعرفة في شعر أبي تمام هي مركز الدائرة، ومنطلق الوجدان، وجوهر الفن، لكنّها مشدودة بخيوط المنطق والفلسفة، وموجّهة نحو التّعقيد بقناعات راسخة، لتؤسّس لاتّجاه فنيّ جديد، يبتعد عن تفاصيل الماضي بتقاليد الفنيّة الموروثة.

لقد كان انفتاح نصوص أبي تمام على النّصّ القرآني جزءا من مشروعه الفنيّ الذي من أولوياته تجسيد حقائق إنسانية نافعة، وقد جاء في ثلاثة أطر: الأول: استنقاء المعاني الدينية، والثاني: توظيف المفردات القرآنية، مثل زقوم وغسلين، والماء النّмир والجنة، والرّغد، والثالث: استدعاء القصة القرآنية. وقد اقتصرت هذه الدراسة بالقصة في إطار المديح والغزل، وكان لافتا أنّ التناص بين الطرفين كان بجامع التقاطع، أو النّماذج، أو التّباين، ولم يكن الشاعر يكتفي بالقصة القرآنية الواحدة في سياق واحد، وإنما يكررها غير مرّة، ومن ذلك قصة يوسف. عليه السّلام. مع نساء مصر، وقد نجد استدعاءه لهلاك بعض الأمم في غرض المديح؛ والهدف هو المقاربة بين هلاك أعداء الممدوح وهلاك هذه الأمم؛ للتخويف، والتهديد.

وقد وُفّق في إقامة علاقة جدليّة مكثّفة بين الحاضر والماضي، وتقريب اللامعقول عند وضعه في

(1) أبو تمام: الديوان، م (2)، ص 264.

(2) المصدر السابق، م (2)، ص 126.

صيغة دينية قصصية، واستغلال التوافق في الأسماء لتكون جسر العلاقة بين الطرفين. واستقباله للقصة القرآنية دفعه إلى التفصيل والتحليل، لأن المعرفة تحتاجها، لتكون منطقية.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967 م.
- الأمدي، الإمام أبي القاسم الحسن بن بشر بن يحيى: الموازنة بين أبي تمام حبيب بن أوس الطائي وأبي عبادة الوليد بن عبيد البحر الطائي، تح محمد محيي الدين عبدالحميد.
- بهجت، مجاهد مصطفى: التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول، ط1، 1982، وزارة الأوقاف العراقية، العراق، سلسلة الكتب الحديثة الكتاب الثامن عشر.
- أبو تمام: الديوان، شرح الخطيب التبريزي، تح محمد عبده عزّام، دار المعارف، مصر، 1964.
- التهالبي: رسائل التهالبي الكناية والتعريض، دار صعب، بيروت، (د. ت.).
- خليفة، يوسف: في الشعر العباسي نحو منهج جديد، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، (د. ت.)
- سلطان، منير: بديع التراكيب في شعر أبي تمام، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- سليطين، فيصل: أبو تمام في دا ثرة الضوء، دار البناييع، دمشق.
- الصولي: أبو بكر محمد بن يحيى: أخبار أبي تمام، تح خليل محمود عساكر وأخزين، قدّم له أحمد أمين، الكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د. ت.).
- النوايسة: حكمت: التناص في شعر أبي تمام، مقالات ودراسات
- www.arab_ewriters.com/?action=chowitem
- هياجنة، محمود سليم محمد: الخطاب الديني في الشعر العباسي إلى نهاية القرن الرابع الهجري، عالم الكتب الحديث، إربد، جدارا للكتاب العالمي، عمان، 2009.
- الواد: حسين: اللغة الشعر في ديوان أبي تمام، دار الجنوب للنشر، تونس، (د.ت.).